المعمارية زها حديد:

العمارة التخييلية بإمكانها إحداث تغيير في حياة الناس

ترجمة / نادية فارس

أبدعت زها حديد في العديد من الأبنية المتميزة في جميع أرجاء العالم –ما عدا بريطانيا. وبما أن عملها الأول في المملكة المتحدة لم يكشف عنه بعد، تحدثت إلى صحيفة الغارديان عن رحلتها في العمل كمهندسة معمارية من ناحية كونها (امرأة).

في غرفة الاجتماع الغائرة للمدرسة السابقة التي تتخذها موقعاً لإقامتها، تحدثت زها حديد عن آخر أعمالها: نحو ١٨ عملاً من تصميمها: جسر في أبو ظبي، مكتبة لجامعة سيفل، ناطحة سحاب في مرسيليا، متحف للفن الحديث في روما. وهناك أيضاً دار أوبرا في دبي والذي يمتد من قاعة الاستماع إلى البحر مثل قنديل بحر رائع.

ولكن بلداً واحداً يغيب بوضوح عن خارطة حديد هو: بريطانيا ومن الجدير بالذكر، أنها اليوم فقط، وبعد ربع قرن من افتتاح مكتبها الهندسي في لندن، أنجزت أولى أعمالها الإنشائية البريطانية: مركز ماجي للاهتمام بالسرطان في كيرك كالدي فيفك والذي سيفتتح من قبل غوردن براون في الشهر المقبل.

وتشرح حديد، الصحف تتعارك حول موضوعات حصرية عن أحدث مبانينا. ثم تستطرد قائلة: في العام الماضي، كانت إحدى الصحف شديدة الاهتياج لتكون الأولى في طبع صورة مركز فينو العلمي في وولف سبيرك، ألمانيا، (ربما هو أجمل أعمالها، ومنحت جائزة ستريلنغ)، وقد أرسلت المجلة مندوبها وهو يرتدي قبعة سميكة وقوية، متظاهراً أنه من عمال البناء، وذلك كي يتمكن من التقاط الصور الأولى بجهاز تصوير صغير.

لقد أصبحت زها حديد شخصية معروفة عالمياً في مجال العمارة، ومسألة حرمان بريطانيا من سحرها تبقى محيرة. وهي على الرغم من حصولها على CBE لخدماتها في ميدان المعمار، فبريطانيا موطنها بالتبني (ولدت في بغداد) وكان ذلك قبل عقد من الزمن.

في عام ١٩٩٤، فازت حديد في مسابقة لتصميم ما أطلق عليه أحدث دار أوبرا، في خليج كارديف. كان تصميمها عملياً وفي الوقت نفسه مدهشاً، مع الكثير من سحر فرانك جيهري في عمله بلباو غوغينهايم، ولكنه رفض من قبل اللجنة الألفية في كانون الأول ,١٩٩٥ وقالت فيرجينيا بوتوملي، آنذاك، سكرتيرة الدولة لشؤون التراث الوطني، إن التطبيق يتدفق "غموضاً". ولكن، مهما تكن الأسباب، فأولئك، الذين خارج عملية صنع القرار، يمكن سماعهم لوصولهم إلى نتيجة من أن حديد كانت مرشحة محفوفة بالمخاطر، فهي أفضل نظرياً من عملياً، المرء يتعجب ويتساءل ما هي أحاسيس أولئك الذين عارضوا المشروع وهم يتطلعون إلى المبنى المبتذل الذي يقع على خليج كارديف اليوم.

حافظت حديد على أعصابها بعد ما حدث، لم تكن لدي فكرة ماذا كان علي فعله غير ذلك..ربما كانت سترسم: فلوحاتها المتأثرة بالمعماريين الروس والمتجذرة في أعمال الفنانين الراديكاليين السوفيت أبان الأعوام الأولى للثورة، هي اعمال ساحرة. ولكنها تنفي ذلك، اللوحات كانت وسيلتي للتعبير عن المعمار. إني لا أجدها نوعاً من الفن. وماذا عن الأكاديمية؟ لقد الهمت جيلاً جديداً من المعماريين في العالم ودرست الرياضيات في الجامعة. لا، إني لا أمتلك الصبر، وأنا لست لبقة. الناس يقولون إني قد أكون مخيفة".

فن المعمار كان في دم حديد، منذ أن زارت للمرة الأولى آثار سومر في جنوب العراق، حيث بدأ المعمار نفسه من هناك وأنشئت أولى المدن. وتقول إن والدها كان صديقاً لويلفريد ثيسيفر، المستكشف الإنكليزي. "تعرفت على الأهوار – جنوب العراق –من خلال كتبه والصور الفوتوغرافية، قبل أن أذهب لزيارة المنطقة. وعندما فعلت، كنت في سن المراهقة، واندهشت. والدي (سياسي / ليبرالي / عراقي بارز) أخذنا لزيارة الآثار السومرية. هناك ركبنا الزوارق ثم في أخرى أصغر حجماً مصنوعة من أعواد القصب، لزيارة قرى في الأهوار. جمال المناظر الطبيعية هناك لم يفارقني قط: رمال، مياه، قصب، طيور، بيوت، وأناس، وكل شيء يطفو فوق المياه.

إنها مشاهد طبيعية لا تزال زها متأثرة بها: "إني أحاول أن اكتشف – اخترع. اعتقد إن المعماري وبعض أشكال الخطط الحضرية، يفعلان نفس الأشياء بطريقة معاصرة بدأت بمحاولة تشييد بنايات تتوهج مثل قطع مجوهرات منعزلة والآن أريدها أن تتوحد، كي تشكل نوعاً جديداً من المشاهد الطبيعية، ان تطفو معاً مع المدن المعاصرة وحيوات سكانها.

في عام ٢٠٠٦، لاتزال زها حديد المرأة البارزة الوحيدة في عالم الهندسة المعمارية، ونعني بذلك، معمارية تدخل كتب التاريخ. وتقول هي: "كانت هناك عدة مهندسات معماريات في الولايات المتحدة الأمريكية، ولكنهن كن على الدوام جزءا من فريق "الزوج والزوجة)، نحن نساء ذكيات وعملن في المكاتب الحكومية في مختلف أنحاء العالم أيضاً، ولكن بالنسبة للمرأة، أن تذهب للعمل وحيدة في مجال المعمار، فذلك أمر صعب وصعب جداً، إنه ما يزال عالم الرجل.

وتمضي حديد في كلامها لتقول: "والأكثر أن المعمار يحتاج إلى تفرغ بنسبة ١٠٠٪. وإن كان ذلك لا يقتلك، فأنت إذن لا تنفع. أعني، عليك أن تتفرغ له بشكل تام ودون انقطاع. وعندما تنقطع المرأة لتتفرغ للانجاب، يكون صعباً العودة والاتصال بالعمل مجدداً. وعندما تنجح (المرأة) حقاً، فإن الصحافة، حتى الصحافة الصناعية، تمضي وقتاً طويلاً للتحدث عن كيفية ارتدائها ملابسها، أحذيتها، ومن ستقابل. ذلك أمر مؤسف بالنسبة للمرأة، خاصة إن كان مكتوباً من قبل امرأة، والتي من المفروض أن تعرف هذه الأمور.

بطريقة أخرى، سأكون أسوأ عدوة لنفسي. كأمرأة أريد أن يكون كل شيء لطيفاً، وإن أكون أنا شخصياً لطيفة أيضاً. انا لا أصمم مباني جميلة –انا لا أحبها. أحب أن يكون البناء المعماري غير مشغول، يتميز بالحيوية ذي خاصية ارضية. لا يمكن أن يكون الكونكريت صقيلاً أو مصبوغاً أو ناعماً. إن أردت أن تلعب لعبة تغيرات الإنارة على مبنى ما، قبل العمل، بإمكانك حينئذ ان تغير اللون وتحس بالكونكريت، في ضوء النهار فقط.

قبل بضعة مواسم شتاء مضت، طرت من نيويورك إلى شيكاغو في وقت الثلوج، في ساعة الغروب، بدت المناظر الطبيعية ومشاهد المدن بلا ألوان، غير ذلك التناقض بين الأسود والأبيض، في حين بدت الأنهار والبحيرات بلون الدم. الأمر مثير للدهشة. فإنك لا تقول أن تلك المشاهد الطبيعية جميلة، ولكنها كانت تمتلك خاصيتي الضوء والحياة والتي أحب أن تتواجد في أبنيتنا.

وزها حديد، تشعر بتأثير الجو، النتيجة التي لا يمكن تجاهلها، وهي الطيران عبر أجواء الولايات المتحدة الأمريكية جيئة وذهاباً. وجدول أعمالها يقتضي منها السفر حول العالم: لقاء عمل أو إلقاء محاضرة، افتتاح معرض أو البناء في مكان آخر. هل إنها لا تتوقف قط؟ "نعم كانت لي إجازة لشهر في هذا الصيف. كانت لدي تلك الفكرة من الاستلقاء قرب بركة، دون أن أعمل شيئاً، مثل أي فتاة أخرى. ولكني مع ذلك لم أتوقف عن التفكير، هذا أولاً، وثانياً، كنت في لبنان، وفي هذا العام بدأت الحرب في اليوم الأول الذي وصلت فيه".

والمبنى الذي تشرف عليه حديد في بيروت وهو الجامعة الأمريكية قيد الإنشاء. وكانت زها درست هناك الرياضيات، قبل أن تنصرف إلى الهندسة المعمارية وذلك في عام ١٩٧٢، وهي تحب جداً تلك المدينة –المتوسطية.

"إنه وضع جنوني لمعمارية تريد أن تبني لا أن تهدم".

جنوني أيضاً لمن يمتلك أيضاً خلفية حديد. إنها مسلمة ولكنها درست في مدرسة للراهبات (الكاثوليك)، ثم في مدرسة سويسرية. في البيت، نشأت ضمن عائلة ذات ثقافة، وكالنسبة تعتبر دراسة وتفهم ثقافات أخرى هناك عدد منها في العراق –أمراً له الأولوية التامة. بعد انقلاب ١٩٥٨ والذي أسقط فيصل الثاني المدعوم من قبل بريطانيا، وقبل أن يستلم حزب البعث السلطة بعد عشرة أعوام من ذلك، كان التعليم يحتل المرتبة الأولى في الجدول السياسي العراقي.

وتقول حديد: "عندما ذهبت إلى الأهوار، كانت هناك مدارس جديدة في مناطق القصب. كانت الفتيات يتعلمن للمرة الأولى. كان الأمر مدهشاً بالنسبة لتاريخ العراق. واليوم لا يوجد في العراق غير الدمار، ذات التوجه الذي قاد لبنان إلى حرب أهلية، الأمر ذاته في خسارة التعليم، وخسارة العرض بالنسبة للمرأة.

وحديد كما تحب أن تشيد مباني في بيروت، تريد ذلك أيضاً في بغداد، ولكن الوقت غير ملائم اليوم. وجهودها تتركز بالتأكيد أمكنة أخرى في الساحة الثقافية. "ما أحب حقاً أن أبني، هي المدارس، المستشفيات، مشاريع سكنية وبطبيعة الحال فإن العمارة التخيلية بإمكانها أن تحدث تغييراً في حياة الناس. ولكني أتمنى إن كان ممكناً تحويل بعض الجهود التي نضعها في المتاحف وقاعات العرض إلى عمارات سكنية".

وفي الوقت الحالي، لاتزال العروض تنصب عليها لبناء المزيد والمزيد من المباني الجريئة: ناطحات سحاب، قاعات كونكريتية والمركز المائي، أو حوض سباحة للألعاب الأولمبية التي ستجرى في لندن عام ٢٠١٢، والتي لديها آمال كبيرة فيها. وعن مشاريعها الكثيرة تقول: "بقينا بلا عمل مدة طويلة، بحيث إني لم أفقد عادة أن اقول نعم لكل عمل. أنا واعية من إننا قد ننحدر إلى ظاهرة الإنتاج الجماعي. ولكني لا اعتقد ذلك، ربما إن علي أن ابدأ بقول (لا)".

وقد عملت حديد مع مصمم الأزياء أيف سان لوران، وتقول: "بالنسبة لمعماري، الأشياء ترتبط ببعضها، تصميم حقيبة أو قطعة من الأثاث أو قطع الفضيات للمائدة لها تحدياتها أيضاً، وهي من الأمور المسلية. أحب أن أعمل تصميمات ذات تكاليف واطئة وتستعمل من قبل أعداد كبيرة من الناس.

لا سبيل في الابتعاد عن حقيقة أن العمارة التي تشرف عليها، حديد، هي نوع من التمسرح، وحديد تهدف إلى تصميم المشهد الحضاري بأكمله، فراغات وأماكن علينا أن نتخيلها.

عن / الغارديان

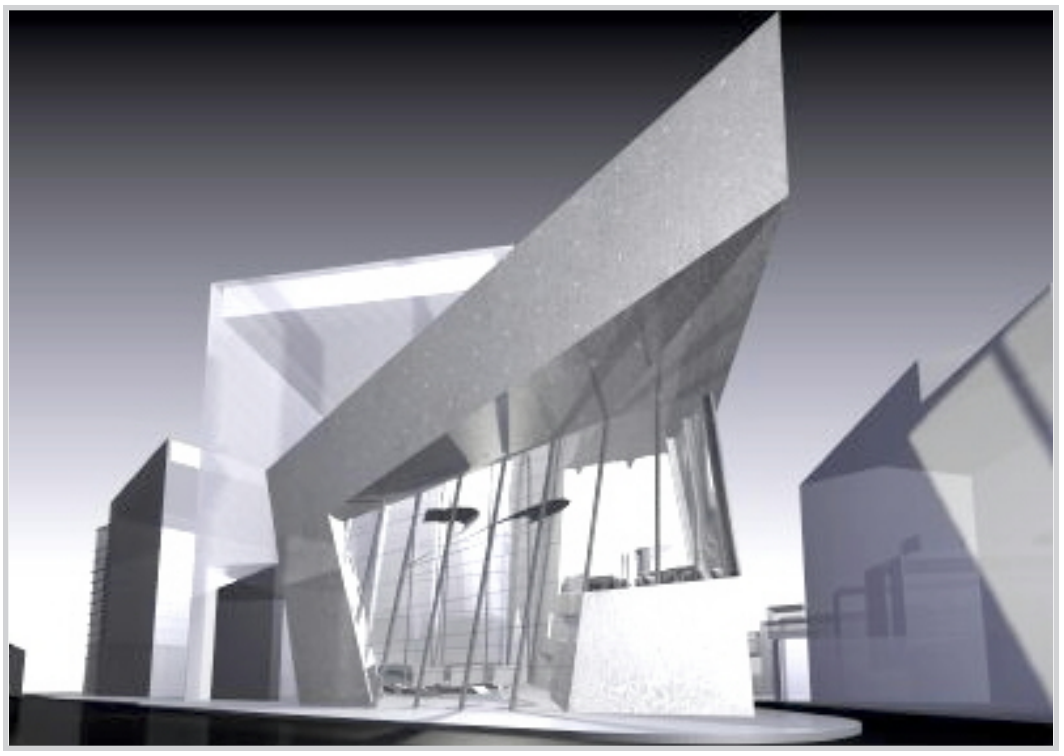

متابعات

المسرح الكربلائي: البداية التي تألقت والخطوات التي شعت في عالم المسرح العراقي

كربلاء / المدى

عبد الرزاق عبد الكريم

يمتاز المسرح الكربلائي بخاصية جعلته في مكانة لها ميزة الريادة خلال السنوات التي ظهر فيها المسرح في العراق..تلك الحقيقة جعلت من مسرحيي كربلاء ينطلقون عبر أعمالهم المسرحية إن كانت تأليفا أم تمثيلا أم إخراجا الى مصاف يخرج من المحلية الكربلائية الى العراقية.

فالمسرح في كربلاء لم يتعكز على النص المحلي الذي له خصوصية المكان المقدس فحسب، بل اخذ من التجارب العراقية والعربية وحتى العالمية طريقا له حتى أضحى عدد لا باس به من ممثلي ومخرجي ومؤلفي المسرح في كربلاء من أشهر العاملين في المسرح العراقي.

ويقول الباحث المسرحي عبد الرزاق عبد الكريم لقد كانت أولى الخطوات عفوية في هذا العالم الفسيح والجميل وبدأت الحركة الأولى في ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي عندما انبرى أشخاص كونوا فرقا ومجاميع شعبية لتقدم مسرحها تارة بطريقة كوميدية وأخرى بطريقة تراجيدية إضافة وهذا هو المهم قدموا المسرح التاريخي بطريقة عفوية..

ويوضح عبد الرزاق كانت العفوية التي اقصدها انه لم تكن في ذلك الوقت نصوص مكتوبة لهذه الجماعات بل اعتمدوا على النص الشفاهي الذي يؤلف في لحظتها من قبل من لهم مخيلة بسيطة..ويضيف ان هذه الخطوة تطورت منذ الأربعينيات إذ أخذت هذه الجماعات تقدم أعمالها على خشبة سميت مسرحا بعد أن كانت تقدم في المناسبات وداخل بيوتات معروفة.

ويتابع..المسرح الجديد توفرت فيه بعض شروط الأعمال الفنية فكانت هناك إنارة وديكور وإكسسوارات لتنتقل إلى ما هو معاش من نبض الشارع وخاصة المناسبات الوطنية والقومية التي كانت تعصف بالبلاد العربية..أما في سنوات الأربعينيات فقد بدأت حركة المسرح المدرسي فقدم عروضا عديدة تتصل بهذا الجانب منها مسرحيات (وعد بلفور، المقاتل، أميرة الاندلس، ضحية العفاف) وهناك أعمال أثارت ضجة في حينها منها (وامعتصماه، عام الفيل، صلاح الدين الأيوبي).. ويشير عبد الكريم.. إن فترة الخمسينيات من القرن الماضي شهدت عروضا تميزت بالنضج نوعا ما من ناحيتي التأليف والإخراج وكذلك التقنية إضافة إلى زيادة خبرة الممثلين فقدم المسرح الكربلائي مسرحيات مثل (تاجر البندقية، البخيل، في سبيل التاج، حفلة زواج) وهذه المسرحيات مأخوذة من المسرح العالمي.

ويستطرد الباحث.. في تلك الفترة ازدهر المسرح وصارت له سمعة طيبة جذبت المسرحيين من بغداد لتقديم عروضهم على خشبة المسرح في هذه المدينة..فقدم الممثل العراقي المعروف حقي الشبلي والمسرحي جعفر السعدي عروضا مسرحية جعلت من مسرح كربلاء يأخذ طابع الانتشار بين صفوف الشباب وقد برز الكثير من الفنانين الكربلائيين الذين أصبحوا من رواد المسرح في المدينة منهم حسن جلوخان، مرتضى لطيف، ناصر الاشيقر، هادي السعيد، عزيز صادق، ضياء النصار، محمد حسن الشكرجي وآخرون.

ويشير عبد الكريم..هذه الحركة المسرحية شجعت بعض الشباب على إكمال دراستهم في معاهد بغداد للفنون الجميلة متحدين الصعوبات فكان الفنان ناصر الاشيقر قد تخرج في معهد الفنون الجميلة وكان المتخصص الأكاديمي الأول في كربلاء، وأول عمل مسرحي له كان (حفلة زواج) واخرج أعمالا فنية لها أطر جديدة وبخطط فنية أكاديمية منها (تؤمر بيك)، وقد أردف الفنان عزي الوهاب بعرض مسرحية (عام الفيل) عام ١٩٦٢ تلتها مسرحيات (جسر العدو، ماكو شغل) ليوسف العاني و(اعداؤنا او شايلوك اليهودي، خان ابو ميسور وغيرها).

ويوضح إن حركة المسرح أخذت بالتوهج حين تخرج الفنان نعمة أبو سبع وهو من رواد المسرح العراقي والكربلائي في عام ١٩٦٥ ليشكل مع أقرانه مسرحا مشعا له رؤية جديدة في عالم الإخراج فقدم مسرحيات (اللصوص) لباسم الحمداني و (سترة توصاه) لجعفر علي و(تؤمر بيك) و (رأس الشليلة) و (ست دراهم) ليوسف العاني وكانت هذه الأعمال تقدم من خلال مديرية التربية والاتحاد الوطني لطلبة العراق واستمرت الأعمال تقدم بشكل مستمر من خلال فرق تابعة لمنظمات جماهيرية منها نقابة معلمي كربلاء والاتحاد الوطني والشباب.

ويؤكد الباحث.. في عام ١٩٧٠، وتحديدا في الشهر الرابع منه، تأسست فرقة مسرح كربلاء الفني وأخذت على عاتقها تقديم مسرحيات بشكل أكاديمي خاصة بعد تخرج نخبة كبيرة من الشباب من معهد الفنون الجميلة في بغداد وكذلك أكاديمية الفنون الجميلة إضافة إلى الرواد وهذه الفرقة استمرت بعطائها حتى الآن وقدمت أكثر من ست عشرة مسرحية بدأتها بمسرحية (العنكبوت) تأليف عادل التميمي وإخراج نعمة أبو سبع، وآخرها (المليارديز) تأليف نواف أبو الهيجاء إخراج علي الشيباني عام ٢٠٠١ وظلت خلال السبعينيات تقدم أعمالها إلى جانب أعمال المنظمات الجماهيرية في المحافظة.

وفي عام ١٩٧٨ يقول عبد الكريم تم تشكيل فرقة رسمية (فرقة كربلاء للتمثيل) تابعة للمؤسسة العامة للسينما والمسرح قدمت أعمالا عديدة قاربت خمس عشرة مسرحية أولها مسرحية (كان ياما كان) لقاسم محمد، إخراج نعمة أبو سبع وآخرها مسرحية (مدينة المحبة) تأليف فلاح عبد اللطيف إخراج نعمة أبو سبع أيضا وبقيت أعمال الفرقة لغاية عام ,١٩٨٥ ويؤكد الباحث إن المسرح في كربلاء لم يقتصر على هاتين الفرقتين بل قدمت فرقا أخرى بعد انتعاش الحياة المسرحية في المدينة..ومن هذه الفرق دور الثقافة الجماهيرية والإعلام الداخلي من تاريخ تأسيسها ١٩٧٥ لغاية ١٩٨٥ قدمت أعمالا فنية قاربت عشر مسرحيات منها (كلمات ورصاص، مأساة الحلاج، صقر قريش، سقوط غرناطة) وكانت معظمها من إعداد الكاتب والشاعر الكربلائي محمد زمان وإخراج فنانين أكاديميين منهم فاضل غصن ومهدي إبراهيم.. كما قدمت فرقة المسرح الريفي التابعة للزراعة مسرحيات متنوعة منها (بذرة خير) تأليف كاظم اللوسي وإخراج علاء العبيدي و(النخلة) تأليف رابعة محمود وإخراج نعمة أبو سبع فضلا عن النشاطات الفنية ومنها المسرحية التي قدمت خلال العقدين السابع والثامن من القرن الماضي من قبل منظمات الاتحاد العام لشباب العراق والاتحاد الوطني لطلبة العراق واتحاد النساء وبيت الثقافة العمالي..

ولم يقتصر العمل أيضا على تقديم مسرحيات للكبار بل كانت هناك حصة للأطفال فقدمت فرقة النشاط المسرحي التابعة لمديرية تربية كربلاء أعمالا فنية متنوعة شملت المسرح والاوبريتات والدمى تتخلل بعضها الألحان والإنشاد، وقد برع في ذلك الفنانون عزي الوهاب، نعمة أبو سبع، علاء العبيدي ثم باشر جيل جديد منهم فريد زيدان، كفاح وتوت حتى الآن إذ كانت تنظم مهرجانات للمدارس وشاركت فرق النشاط المدرسي بمهرجانات على مستوى البلد وظلت لسنوات عديدة تحصل على الجوائز الأولى منها (الصياد والطائر) لباسم الحمداني إخراج علاء العبيدي ١٩٧٧ ومسرحية (سر الكنز) لعلي مزاحم عباس إخراج نعمة أبو سبع ١٩٧٩، فضلا عن تجارب مسارح الدمى بمسرحية (سبع السبمبع) لسلمان عبد إخراج علاء العبيدي سنة ,١٩٧٧

وعن المسرح ما بعد عام ٢٠٠٣ يقول الباحث عبد الكريم..لم نشاهد مسرحا ولم تتمكن الحركة المسرحية من العمل بسبب الظروف الأمنية المعروفة إضافة إلى عدم وجود أي اهتمام من قبل المسؤولين ومن جميع الأطراف أو الجهات.. ويبين انه بعد هذا التاريخ الذي يمثل سقوط النظام تحولت قاعات العرض المسرحي إلى قاعات للعرض السياسي والديني وأصبحت هذه القاعات لا تمت إلى الفن بصلة..ويوضح ان هناك قاعتين كبيرتين في كربلاء هما قاعة الإعلام الداخلي وقاعة الإدارة المحلية وهما تتوفران على بعض الشروط للعروض المسرحية إلا إنهما الآن تختنقان بالهم السياسي والديني وأصبحتا مكانين للمؤتمرات بدلا من العروض المسرحية. لذلك أقول إن المسرح في السبعينيات كان أفضل وفي عز ازدهاره حتى بداية الثمانينيات ثم تراجع مع بدء الحرب فكريا وحرية وأصبحت العروض تبحث عن فرصة النص الذي يخاتل السلطة ليخبو الآن بسبب الجو الديني والواقع الديني الذي يؤثر حتى على اختيار النص المسرحي..مؤكدا.. بعد سقوط النظام قدمت مسرحية واحدة للمخرج والموسيقي مهدي هندو (الصعود إلى السماء) في قبو المكتبة المركزية وبجهود ذاتية وما عداها من عروض فلم تكن عروضا مسرحية بل كانت عروضا بالاتجاه الآخر وما زلنا نخاتل أنفسنا في النص ولكن هذه المرة أكثر خوفا.

والباحث عبد الكريم من مواليد عام ١٩٤٧ احد مؤسسي نقابة الفنانين المركز العام ومؤسس نقابة الفنانين في كربلاء وعضو اللجنة العليا لجميع مهرجانات الاخيضر في مدينة كربلاء ورئيس فرقة مسرح كربلاء الفنية مثل وإدار أكثر من ٤٠ عملا مسرحيا منذ عام ١٩٦٦ وقدم بحوثا عن المسرح في عدد من المؤتمرات المسرحية داخل العراق وخارجه في الإمارات ولبنان.